احتواها الكتاب وفى الوقت نفسه يؤكد منهجيته فى التناول . وقد ذكر فى هذا الصدد رأيين احدهما أن الكلمتين ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلاهما اللغوى ، فالبلاغة فى اللغة من قولهم : بلغت الغاية إذا انتهيت إليها وبلغتها غيرى ، ومبلغ الشي منتهاه ،فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهى المعنى إلى قلب السامع فيفهمه . أما الفصاحة فهى من قولهم : أفصح الصبح إذا أضاء ، وأفصح اللبن إذا انجلت عنه رغوته فظهر . وهكذا تئول الكلمتان إلى معنى واحد ، هو الإبانة عن المعنى والإظهار له ، على الرغم من اختلاف الأصل اللغوى لكل منهما .

الرأى الثاني أن الكلمتين مختلفتان فى المعنى باعتبار أن الفصاحة إنما هى تمام آلة البيان ؛ ومن ثَم لا يسمى الألثغ والتمْتام فصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف وبذلك تتعلق الفصاحة باللفظ ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى . وأما البلاغة فإنما هى إنهاء المعنى إلى القلب فكأنها مقصورة على المعنى(١٤٧) . وقد استخلص أبو هلال من هذين الرأيين رأيا آخر يجمع بينهما ، وفيه تصبح الفصاحة شرطا أساسيا فى مفهوم البلاغة ، إذ يقول أبو هلال عنها : « البلاغة كل ما تُبلِّغ به المعنى قلب السامع فتمكنُه فى نفسه كتمكنه فى نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن . وانما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا فى البلاغة ، لأن الكلام إذا كانت عبارته رَثَّة ومعرضه خَلَقاً لم يسم بليغا ، وإن كان مفهوم المعنى ، مكشوف المغزى »(١٤٨) . وليس هذا المفهوم للبلاغة جديدا فى الواقع فقد رأيناه من قبل عند الرمانى ، بل يمكن القول بأن أصل الفكرة منبث فى ثنايا حديث الجاحظ المستفيض عن البلاغة فى « البيان والتبيين »(١٤٩) . لكن الذى يبدو جديدا فى الموضوع هو ظهور كلمة « الفصاحة » كمصطلح يسامت مصطلح البلاغة » ويجرى تحديد دلالته مستقلا عن البلاغة على نحو لم يعهد من قبل ، فقد مضى البيانيون منذ الجاحظ على اعتبارهما شيئا واحدا ، وكانت السيطرة فى الاستعمال لكلمة « البلاغة » فهى الكلمة الاصطلاحية المتداولة على ألسنة أهل اللغة والمتأدبين ونقاد الشعر .

---

(١٤٧) كتاب الصناعتين ص ١٢ - ١٥ .

(١٤٨) انظر السابق ص ١٦ .

(١٤٩) انظر ١ ص ٨٨ - ٩٧ .